هزيمة النصر

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

●

يحكى ان انقلاباً حدث منذ قرون في الهند إذ ثار الجيش في إحدى المقاطعات على حاكمها المستهتر العاتي ، فتخلص منه وطرده شر طرد . ولكن زعماء الانقلاب لم يحذروا أحابيل الوصوليين والانتهازيين الذين سرعان ما اتخذوا منهم اعواناً لهم، مع ان هؤلاء الوصوليين والانتهازيين كانوا سند الأحزاب التي اعتمد عليها الحاكم المطرود والتي عاثت في البلاد فساداً . فعمل اولئك المداورون بأحابيلهم على إقصاء المفكرين الأحرار المقيمين منهم والمنفيين عن زعماء الأنقلاب بالتغاضي عنهم وإغفال مشورتهم ، وتناسوا تضحياتهم وحسن قدوتهم والبذور الصالحة التي بذروها وسط السخط عليهم ، فمهدوا للانقلاب وهيأوا الاذهان له . وعلى الرغم من هذا الجحود والنكران استمر اولئك الأحرار في البر بوطنهم في القرب والبعد . ولكن الوصوليين والانتهازيين تغلغلوا في آلة الحكم وافسدوا المعايير وعرقلوا التقدم ، فلما تنبه الزعماء الى خطئهم كان الموت وخيبة الأمل والحسرة قد ادركت اكثر اولئك التقدميين ، وكانت النتيجة ان وجد الزعماء انفسهم امام زرافات من الانتهازيين الحربائيين بدل عاتية مستهتر واحد ، وانهم ما زالوا بعيدين عن الأمن والطمأنينة . وراح عاقل من بينهم يقيس مقدار الخسارة الجسيمة التي اصابت الشعب بحرمانه مفكريه الاحرار ، وحاول ان يسترد المنفيين منهم ، فوجد الغربة قد تمكنت منهم تمكن الشيخوخة ، وحاول ان ينقذ الأحلام الباقين في بلادهم فوجد الجحود كذلك قد أكل من مواهبهم كما يأكل الصدأ الحديد . عندئذ صاح، هذا الرجل العاقل في جماعته :«لقد انتصرنا ايها السادة على الطاعية ، ولكننا لم ننتصر على غبائنا ، وقد غنمنا فوق ما كنا نأمل ولكن فاتنا اضعاف ما غنمنا ، وقد تغلبنا على خطر كبير ، ولكننا لم نتغلب ، ولا أدري متى سنتغلب على المخاوف التي تساورنا من كل جانب ، وقد حرصنا على غنائم المعركة ، ولكننا لم نحرص على العقول والنفوس التي مهدت لها . إن في الخارج عدواً خبيثاً ما يزال يحلم بالعودة لاستئصال شأفتنا جزاءً لنا على الأكتفاء بطرده ، وإنّ في الداخل اذناباً له متسترين لا عداد لهم . لقد ضيعنا ايها السادة اعظم ذخيرة لنا وهي العقول والنفوس الحرة التي لا تعوض واستبدلنا بها القوة العادية فحسب ، إننا نواجه الآن ايها السادة هزيمة النصر » .

★ ★ ★

زعموا ان ثورةً في (الهندِ) عصفَتْ ريحُها بتاجٍ ومجْدِ
همهُ غايةُ التهتكِ والغدرِ يباهي بكل ما كان نُكْرا

فتَوَلى كالريح في هرَبٍ منها طريداً جبّارُها المستبِدُّ
ويرى في التآمر المتناهي نشوةً نافستْ ولوعاً بعارهْ

وكذاك الأحداثُ تنتقمُ للشعب متى عافَ ذِلةَ المستَجْدي
غير ان القادة الكبارَ وإن قاموا بخلعِ العتيِّ قد أيّدوهُ

ومتى أرخَصَ الحياةَ ولم يُرْخِص شعوراً به الحياةُ تُعَدُّ
أيّدوهُ بعشقِ كلِّ وُصوليٍّ خؤونٍ كأنهم أهْلوهُ

راح ذاك الطريدُ يُهْرَعُ للنفي ولكن سرعان ما كان شرّا
أيّدوه بتركهم كل حرٍّ وأبيٍّ كأنما عاقبوهُ

همُّهُ قتلُ خالِعيهِ وإن أبْقَوْا عليه ، وإن نجا بنُضارِه
أيّدوه لما تناسَوْا رجالاً عرّفوا الشعبَ حقه وافتدوه

إن بعض الفداء تجريعُ حرمانٍ وظـــلم وغربةٍ وافتقار
انهذا أقسى من الصلب والموتِ ،فبالموت يقهَرُ الحرُّ أسرَه
إن بعض الفداء ان تبذُر البَذْرَ من النفس قاهرَ الأقدارِ
إن بعض الفداء سخرُك باليأس وإن لم تنلْ من الحظ قطره
هكذا أُرهق الخيارُ من الاحرار لم يغنموا سوى الظلم شكرا
هكذا حُمّلوا العَناءَ من النفيِ ومن غربة على الحالَيْنِ
هكذا ما ونوا وإن ذوّقوا الضيم وإغفالَهم جزاءً وأجرا
هكذا أُفسدت معايير حكمٍ فغدا دون مهجةٍ أو يديْنِ
ولو ان الأحرار ما بخلوا يوماً — على بؤسهم — بما فيه خيرُه
إن حب الأوطان ليس كفاء النفع منها، بل إنه كالغريزه
كم كريم بروحه خانه الوطن العاقُّ وعدّ الاحسانَ مافيه ضيرهْ
وكذاك الأحرار في القرب والبعد استظلوا بحب أرض عزيزه
وأبوا خطرة الجحود وان ظلوا بعيدين عن مجال الحكومه
ولو أن البلاد صارت مجالاً لأحابيل كل غرو وصولي
ولو أن التقدم الحق عانى من أذاهم ضروب كيدٍ عميمه
ولو أن الأبرار صاروا سواءً والمسيئين في زمان جهول

وأخيراً تنبه الزعماء للذي فاتهم وما ضيعوه
ورأوا في محل عاتية فرد عديداً من العتاة الصغار
لم يكن إثمهم صغيراً، فكم باعوا حقوقاً ، وبئس ما حازوه
مثلما بدّدوا المواهب بالحسرة واليأس والأذى والصّغار
ومضى بينهم حكيم يقيس الغرم من ذلك التهاون حينا
بعد ما مات او تهدم من عاش غبينا من نخبة المصلحينا
وسعى كي يعيد من ضاع في النفي وقد شاخ في التأسي حزينا
وسعى كي يخص بالوطن العاني من المجد صفوة الوافينا
وسعى ينقذ البقية منهم فرآهم في أهلهم غرباء
أكلت منهمو السنون كما يأكل عاتي الصدا القوي الحديد
عندها صاح في اولي الحل والعقد — أفيقوا إذن! كفاكم غباء!
إن نصراً لا ينصف الفكر والاعلام وهم ، وإن يعد الفريد
ان يكن نصرنا على الخطر استعلى فانا رهن المخاوف بتنا
قد حرصنا على الغنائم ، لكنا على الفكر والحجى ما حرصنا
وجحدنا تلك العقول التي كانت لنا الماهدات فيما بانغنا
ونسينا تلك النفوس التي بثت معاني الاباء فيما ابينا
إننا لا نزال في خطر جم من الخصم وهو في منفاه
فهو ما زال يسعى لكي ينسف بالدس كل ما نبنيه
قد رأفنا به ، وهذا جزاء لاكتفاء بطرده عن حماه
حينما حولنا له أذنابٌ لن يعدّوا ، عاشوا على التمويه

ايها السادة العظام ! اضعنا خير ذخر لنا وان قيل فزنا
قد غنمنا حكماً ، ولكن خسرنا اي كنز بنبذنا كل حرّ
إننا الآن لا نواجه إلا عالماً في مداه قد ضاق عنا
قد خذلنا الاحرار فينا فنلنا رغم نصرٍ هزيمة للنصر !.

احمد زكي ابو شادي
استاذ الادب العربي بمعهد آسيا في نيويورك